أنزل [٨٩/ب] له دواءً. علمه من علمه، وجهله من جهله»[١].

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: حَسْم مادّته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزولها.

وكلاهما يسير على من يسّره الله عليه، ومتعذّر على من لم يُعِنْه، فإنّ أزِمّة الأمور بيديه.

فأمّا الطريق المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

أحدهما: غضّ البصر[٢]، كما تقدّم، فإنّ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. ومَن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه. وفي غضّ البصر عدّة منافع، وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع[٣].

أحدها: أنّه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربّه تبارك وتعالى. وما سَعِدَ من سَعِدَ في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره[٤]، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعلّ فيه هلاكه

---

(١) تقدّم في أول الكتاب.

(٢) والثاني سيأتي في الفصل القادم.

(٣) «وهو بعض... النافع» انفردت بها نسخة ف. وانظر في فوائد غضّ البصر: روضة المحبين (١٩٤ ـ ٢٠٢)، وإغاثة اللهفان (١٠٣ ـ ١٠٦). وانظر ما سبق في آفات النظر في ص (٣٤٨).

(٤) ز: «أوامر ربّه».

إلى قلبه.

الثالثة: أنّه يورث القلب أنسًا بالله وجمعيةً على الله، فإنّ إطلاق البصر يفرّق القلب، ويشتّته، ويُبعده من الله. وليس على العبد شيء أضرّ من إطلاق البصر، فإنّه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوّي القلب ويفرحه، كما أنّ إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يُكسب القلب نورًا، كما أنّ إطلاقه يكسبه(١) ظلمةً.

ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغضّ البصر فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور/ ٣٠]. ثم قال(٢) إثر ذلك: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور/ ٣٥] أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

وإذا استنار القلب أقبلت(٣) وفود الخيرات إليه من كلّ ناحية، كما أنّه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشرّ عليه من كل مكان. فما شئتَ من بدع وضلالة، واتّباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة! فإنّ ذلك إنّما [٩٠/أ] يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فُقِد(٤) ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي

---

(١) ف: «يلبسه».
(٢) «قال» ساقط من ف.
(٣) ف: «أقبل».
(٤) س: «نفد»، وفي حاشيتها: «خ فقد».

يجوس في حنادس الظلمات.

السادسة: أنّه يُورثه فراسةً صادقةً يميّز بها بين المحِقّ والمبطل[(١)]، والصادق والكاذب.

وكان شجاع الكرماني[(٢)] يقول: من عمر ظاهرَه باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة؛ وغضّ بصرَه عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، واغتذى بالحلال = لم تخطىء فراسته. وكان شجاع هذا لا تخطىء له فراسة[(٣)].

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا[(٤)] عوّضه الله خيرًا منه، فإذا غضّ بصره عن محارم الله عوّضه الله[(٥)] بأن يُطلِق نورَ بصيرته عوضًا عن حبسِه[(٦)] بصرَه لله، ويفتحَ عليه[(٧)] باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنّما تُنال

---

(١) س: «الحق والباطل». ل: «الحق والصادق» فسقط منها: «الباطل».

(٢) كذا في جميع النسخ وروضة المحبين (٢٠٠). وفي إغاثة اللهفان (١٠٥): «أبو شجاع» وفي المدارج (٢/ ٤٨٤) والروح (٥٣٥): «شاه الكرماني»، وهذا الأخير هو الصواب. فهو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني. كان من أولاد الملوك وعلماء الصوفية. مات قبل الثلاثمائة. طبقات الصوفية (١٩٢).

(٣) انظر حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٣)، والرسالة القشيرية (٤٢٨). وقد نقل المؤلف قول شاه في كتبه المذكورة في التعليق السابق أيضًا. وفي ف: «شيخنا» بدلاً من «شجاع هذا»، وهو غريب.

(٤) ل: «شيئًا لله».

(٥) «خيرًا منه... عوضه الله» ساقط من س.

(٦) س: «من حبسه».

(٧) س: «وفتح الله عليه».

ببصيرة القلب[1].

وضدّ هذا ما وصف الله به اللوطية من العمَه الذي هو ضدّ البصيرة، فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر/ ٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعَمَه الذي هو فساد البصيرة.

فالتعلّق بالصور يوجب فساد العقل[2]، وعَمَه البصيرة، وسُكْر القلب[3]، كما قال القائل:

سُكْرانِ سُكرُ هوًى وسُكرُ مُدامةٍ ومتى إفاقةُ مَن به سُكرانِ[4]؟

وقال الآخر[5]:

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم العشقُ أعظم ممّا بالمجانينِ
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه وإنّما يُصرَع المجنونُ في الحين[6]

---

(١) ف: «لا تنال إلا ببصيرة القلب».
(٢) «والعمه الذي هو فساد... العقل» ساقط من س.
(٣) ز: «سكرة القلب».
(٤) من أبيات للخليع الشامي، في يتيمة الدهر (١/ ٢٧١)، وفيه: «أنّى يفيق فتًى به سكران». وقد أنشده المؤلف في التبيان (٢٧٣)، وروضة المحبين (٢٠٣)، والمدارج (٣/ ٣٠٨).
(٥) س: «آخر».
(٦) أنشدهما المؤلف في روضة المحبين (١٣٠، ٢٩٢)، ونقلهما في إغاثة اللهفان (٨٧٣) من اعتلال القلوب للخرائطي. وقد نسبهما في الروضة (٢٤٢) إلى قيس، وهو مجنون ليلى، كما في الأغاني (٢/ ٣٢)، ومصارع العشاق (١/ ١٢٦، ٢/ ١٨١). وانظر ديوانه (٢١٨). والرواية: «قالت جننت على رأسي فقلت لها الحب...» وفي البيت الثاني: «الحب ليس يفيق...» وكذا في الاعتلال (٣٧٧)، إلا أن فيه «العشق» مكان «الحب».

السابعة: أنّه يورث القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان[١] من ظلّه[٢].

وضدّ هذا[٣] تجد في[٤] المتّبع لهواه من ذلّ النفس ووضاعتها ومهانتها وخِسّتها وحقارتها ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن: إنّهم وإن طقطقت بهم البغال[٥]، وهَمْلَجَتْ بهم البراذين، إنّ ذُلّ المعصية في رقابهم. أبى الله إلا أن يُذِلّ من عصاه[٦].

وقد جعل الله سبحانه العزّ قرين طاعته، والذلّ قرين معصيته، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨] وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران/ ١٣٩]. والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن.

وقال تعالى [٩٠/ب]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر/ ١٠]. أي: من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكرِه من الكلم الطيب والعمل الصالح.

---

(١) ز: «السلطان»، تحريف.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه قال: «من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله». وأخرجه أيضًا (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار قال: «من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله».

(٣) ف: «وضده».

(٤) «تجد في» ساقط من ل.

(٥) ف: «النعال»، تصحيف.

(٦) تقدّم تخريجه في ص (١٤٦).

وفي دعاءالقنوت: «إنّه لا يذِلّ من واليتَ، ولا يعِزّ من عاديتَ»[١]. ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العزّ بحسب طاعته. ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذلّ بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسدّ على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنّه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثّل له حسنَ[٢] صورة المنظور إليه، ويزيّنها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب. ثم[٣] يَعِدُه، ويمنّيه، ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه[٤] حطب المعاصي التي لم يكن يتوصّل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب[٥]. فمن ذلك اللهيب[٦] تلك الأنفاسُ التي يجد

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥، ١٤٢٦) وابن ماجه (١١٧٨) والترمذي (٤٦٤) وأحمد ١/١٩٩، ٢٠٠ (١٧١٨، ١٧٢١) وابن خزيمة (١٠٩٥) وابن الجارود (٢٧٢) والبيهقي (٢/٢٠٩) وغيرهم من طريق أبي إسحاق السبيعي ويونس بن أبي إسحاق والعلاء بن صالح عن بُرَيد بن أبي مريم عن أبي الحوراء عن الحسن بن علي فذكره.

وخالفهم شعبة فرواه عن بريد بن أبي مريم به مثله ولم يذكر «في الوتر». أخرجه أحمد ١/٢٠٠ (١٧٢٣) وابن خزيمة (١٠٩٦) وابن حبان (٧٢٢) وغيرهم.

والحديث صحيح إلا أن ابن خزيمة طعن في لفظة «في الوتر» أو «في قنوت الوتر»، فليراجع كلامه في صحيحه (١٠٩٦).

(٢) «حسن» من س.

(٣) «ثم» ساقطة من ل.

(٤) ف: «عليها».

(٥) ل: «اللهب».

(٦) ف، ل: «اللهب».

فيها وهج النار، وتلك الزفَراتُ والحُرُقاتُ. فإنّ القلب قد أحاطت به النيران من كلّ جانب، فهو[1] في وسطها كالشاة في وسط التنّور.

ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرّمة[2] أن جُعِل لهم في البرزخ تنّورٌ[3] من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيّه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته[4].

التاسعة: أنّه يُفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاقُ البصر يشتّته عن ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط[5] عليه أموره، ويقع في اتّباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف/ ٢٨]. وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أنّ بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا[6] فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح[7]، فإذا خربت العين وفسدت [٩١/أ] خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي

---

(١) س: «فهي»، خطأ. ز: «فهو».
(٢) ف: «والصور المحرّمة».
(٣) ف: «تنورًا».
(٤) تقدم في ص (١٥٤).
(٥) ف،ل: «فيفرط». ز: «فيتفرّط».
(٦) ف: «وإذا».
(٧) ف: «صلاح العين».

هي محلّ[1] النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنّما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غضّ البصر تُطْلِعك على ما وراءها.

فصل

الثاني[2]: اشتغال القلب بما يصدّه عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه. وهو[3] إمّا خوفٌ مقلِق، أو حبٌّ مزعِج. فمتى خلا القلب من خوف ما فواتُه أضرُّ عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوفِ ما حصولُه أضرُّ عليه من فوات هذا المحبوب[4]، أو محبةِ ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب وفواتُه أضرّ عليه من فوات هذا المحبوب = لم يجد بدًّا من عشق الصور.

وشرح هذا أنّ النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروهٍ حصولُه أضرّ عليها من فوات هذا المحبوب. وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فُقِدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرّق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبَين على أدناهما، ويحتمل أدنى

---

(١) ز: «محمل».
(٢) يعني: الأمر الثاني المانع من حصول داء العشق.
(٣) «وهو» ساقط من ف.
(٤) ف،ز: «فوات المحبوب». وقد سقط من ل: «أو خوف ما حصوله... المحبوب».